

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { إن هذه { أي السورة { تذكرة { أي يتذكر بها أولو الألباب ولهذا قال تعالى : { فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا { أي ممن شاء الله تعالى هدايته كما قيده في السورة الأخرى { وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً { ثم قال تعالى : { إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك { أي تارة هكذا وتارة هكذا وذلك كله من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولهذا قال : { والله يقدر الليل والنهار { أي تارة يعتدلان وتارة يأخذ هذا من هذا وهذا من هذا { علم أن لن تحصوه { أي الفرض الذي أوجبه عليكم { فاقروا ما تيسر من القرآن { أي من غير تحديد بوقت أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر وعبر عن الصلاة بالقراءة كما قال في سورة سبحان { ولا تجهر بصلاتك { أي بقراءة تك { ولا تخافت بها { وقد استدلل أصحاب الإمام أبي حنيفة ع بهذه الآية وهي قوله : { فاقروا ما تيسر من القرآن { على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة في الصلاة بل لو قرأ بها أو غيرها من القرآن ولو بآية أجزاء واعتضدوا بحديث المسية صلاته الذي في الصحيحين [ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن] وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فهي خداج غير تمام] وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً [لا تجزء صلاة من لم يقرأ بأم القرآن] .

وقوله تعالى : { علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله { أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل من مرضى لا يستطيعون ذلك ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد فهي من أكبر دلائل النبوة لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلية ولهذا قال تعالى : { فاقروا ما تيسر منه { أي قوموا بما تيسر عليكم منه قال ابن جرير : حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن أبي رجاء محمد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة قال يتوسد القرآن لعن الله ذلك قال الله تعالى للعبد الصالح { وإنه ل ذو علم لما علمناه { { وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم { قلت : يا أبا سعيد قال الله تعالى : { فاقروا ما تيسر من

القرآن { قال نعم ولو خمس آيات وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : [ذاك رجل بال الشيطان في أذنه] فقليل معناه نام عن المكتوبة وقيل عن قيام الليل : وفي السنن [أوتروا يا أهل القرآن] وفي الحديث الآخر [من لم يوتر فليس منا] وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فإعلم .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن سعيد فرقد الحدرود حدثنا أبو محمد بن يوسف الزبيدي حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن طاوس من ولد طاوس عن أبيه عن طاوس عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم { فاقروا ما تيسر منه } قال : [مائة آية] وهذا حديث غريب جدا لم أراه إلا في معجم الطبراني C تعالى وقوله تعالى : { وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة } أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة وهذا يدل لمن قال إن فرض الزكاة نزل بمكة لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين إلا بالمدينة وإعلم وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان إعلم قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لذلك الرجل : [خمس صلوات في اليوم واليلة] قال : هل علي غيرها ؟ قال : [لا إلا أن تطوع] .

وقوله تعالى : { وأقرضوا إعلم قرضا حسنا } يعني من الصدقات فإن إعلم يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى : { من ذا الذي يقرض إعلم قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة } وقوله تعالى : { وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند إعلم هو خيرا وأعظم أجرا } أي جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أبو خيثمة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الحارث بن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : اعلمو ما تقولون قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر] ورواه البخاري من حديث حفص بن غياث والنسائي من طريق أبي معاوية كلاهما عن الأعمش به ثم قال تعالى : { واستغفروا إعلم إن إعلم غفور رحيم } أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره آخر تفسير سورة المزمل وإعلم الحمد والمنة